٤ ـ تفسير الأحـــلام

للعلامة سجموند فرويد

سلسلة محاضرات ألقاها فى فينا

للاستاذ محمد جمال الدين حسن

أحلام الطفولة :

أظنكم تشعرون أننا قد تقدمنا فى سرعة زائدة عن اللازم ، وعلى هـذا فلنقصر من خطوتنا قليلا . تذكرون أننا عندما قمنا بتجربتنا الأخيرة فى محاولة التغلب على الصعوبة التى تنشأ عن التحريف فى الأحلام ، قلنا إنه من المستحسن أن نحتال على ذلك بأن نركز كل جهودنا فى اختبار الأحلام التى تكون خالية أو شبه خالية من التحريف إذا كان هناك أحلام من هذا القبيل. ولكننا بهذا القول نكون قد عدنا إلى الميعاد عن جادة الصواب ، لأن الطريق الذى سلكناه فى البحث لم يهدنا فى الواقع إلى معرفة شىء عن هـذه الأحلام الخالية من التحريف إلا بعد أن طبقنا طريقنا فى التفسير مراراً وتكراراً على أحلام من النوع المحرف ، وحللناها تحليلا مضنياً استنفد منا مجهوداً كبيراً .

وهذا النوع الذى نبحث عنه من الأحلام موجود فى الأطفال ، فأحلام الطفولة أحلام واضحة ، سهلة الفهم ، متماسكة خالية من التعقيد . وليس معنى هذا أن كل الأحلام فى الأطفال من هـذا النوع ، فالتحريف يبدأ عادة فى الظهور من بواكير الطفولة ، وتوجد تحت يدنا أحلام لأطفال بين الخامسة والثامنة تظهر فيها كل الخواص التى تظهر فى أحلام البالغين . ولكننا إذا اقتصرنا على النظر فى الأحلام التى تحدث فى المدة الواقعة بين بدء النشاط العقلى للطفل والسنة الرابعة أو الخامسة من حياته ، وجدنا أنها تحتوى على سلسلة من الأحلام يمكن أن نطلق عليها حقاً « أحلام الطفولة » . وهذه الأحلام قد توجد بصفة فردية فى أواخر الطفولة . كما أن كثيراً من البالغين يرون فى ظروف معينة أحلاماً لا تختلف عنها اختلافاً يذكر .

وهذه الأحلام فى إمكانها أن تمدنا بمعلومات وافية عن الطبيعة الأساسية للحلم نأمل فى أن تكون عامة تنطبق على جميع الأحلام على اختلاف أنواعها :

١ — هذه الأحلام لا تحتاج فى تفهم معناها إلى أى تحليل أو تطبيق لطريقتنا فى التفسير . فليس من الضرورى أن نستجوب الطفل الذى رأى الحلم بل يكفى أن نعرف شيئاً عن حياته . وهذه المعرفة لا بد منها لأننا نجد فى كل حالة أن حادثة من الحوادث التى وقعت للطفل فى اليوم السابق هى التى تفسر لنا الحلم ، وما الحلم فى الحقيقة إلا رد الفعل الذى ينتج عن هـذه الحوادث أثناء اليوم .

دعونى أضرب لكم بعض الأمثلة حتى نستطيع أن نبنى استنتاجاتنا القادمة عليها :

(ا) كان على طفل يبلغ من العمر سنة وعشرة شهور أن يقدم صندوقاً من الحلوى هدية إلى أحد أقرانه بمناسبة عيد ميلاده . ومن الواضح أن الطفل قام بهذا العمل على غير رغبة منه ، على الرغم من أنه قد وعد بأن ينال شيئاً منها لنفسه . وفى الصباح روى الطفل الحلم الآتى : « لقد أكل هرمان كل الحلوى » .

(ب) قامت طفلة تبلغ من العمر ثلاث سنوات برحلة بحرية لأول مرة فى حياتها ، فلما وصل الركب إلى الشاطىء أخذت الطفلة تصيح راغبة عن النزول من المركب فقد مر الوقت بالنسبة لها مراً سريعاً من غير شك . وفى صبيحة اليوم التالى قالت الطفلة : « لقد رأيت نفسى فى النوم على ظهر مركب يمخر عباب الماء » . وقد يكون فى إمكاننا أن نستنتج أن هذه الرحلة طالت عن الرحلة الحقيقية حتى تشبع رغبة الطفلة .

٢ — نرى من هذا أن أحلام الطفولة ليست عديمة المعنى بل هى عمليات عقلية واضحة المرمى مفهومة المعنى ، وقد سبق أن بينت لكم أن النظرية الطبية تفسر الحلم على أنه ظاهرة جسمية تنشأ عن اضطراب فى المعدة أو ما شابه ذلك . وقد شبه بعضهم بالأصوات التى تصدر عن آلة موسيقية من يد غير بارعة . ولكنكم بلا شك لن تغفلوا عن التناقض الواضح بين هـذا التشبيه وبين أحلام الأطفال التى رويتها لكم . فإذا كان فى استطاعة الطفل أن يقوم بعمليات عقلية كاملة أثناء النوم فليس من المعقول إذاً أن يقنع

الرجل البالغ بأن تجيء أحلامه رد فعل لعوارض جسمية ليس إلا ! هذا مع العلم بأن الطفل عادة يكون أعمق نوماً من الرجل البالغ .

٣ — هذه الأحلام خالية من التحريف ، وعلى هـذا فهى لا تحتاج إلى تفسير ، فالمحتوى الظاهر والمحتوى الباطن متماثلان . ومن هـذا يمكننا أن نستدل على أن التحريف ليس من الأشياء الضرورية فى تكوين الحلم . أظن هذه النتيجة سترفع عنكم عبئاً ثقيلا ، ومع هذا فإننا إذا دققنا النظر وجدنا أن التحريف موجود حتى فى هذه الأحلام وإن كان على درجة طفيفة جداً ، وأن هناك اختلافاً ولو بسيطاً جداً بين المحتوى الظاهر والمحتوى الباطن للحلم .

٤ — الحلم الذى يراه الطفل عبارة عن رد فعل لحادثة وقعت له فى اليوم السابق وخلفت بعدها آثاراً من النـدم أو الطموح أو رغبة لم تحقق . وهـذه الرغبة تتحقق فى الحلم فى صورة واضحة مكشوفة . ومن الواضح أننا لا نجد فى أحلام الطفولة هذه أى أثر للمؤثرات العضوية التى يركن إليها بعض العلماء فى تفسير الأحلام ولـكن ليس معنى هـذا أننا ننكر أثر هذه المؤثرات فى تكوين الأحلام ، وإنما كل ما أود قوله هو أن أسألكم لم تغفلون من مبدأ الأمر أن هناك مؤثرات عقلية كما أن هناك مؤثرات عضوية تقلق نومنا ؟ فنحن نعلم بلا شك أن هذه المؤثرات هى التى تمنع الرجل البالغ من النوم لأنها تجعل من العسير عليه أن يتهيأ للحالة العقلية اللازمة للنوم أى قطع كل صلة تربطه بالعالم الخارجى ، فهو لا يرغب فى أى شىء يقطع عليـه حبل أفكاره ويود لو ظل يعمل فيما هو مشغول به وهذا هو السبب الذى يمنعه من النوم . وعلى هذا فالمؤثر العقلى الذى يقلق نوم الطفل هو الرغبة التى لم تحقق والحلم هو رد الفعل الذى ينشأ عن ذلك .

٥ — نرى من هذا أن قيمة الحلم كرد فعل للمؤثرات العقلية تتوقف على قدرته على تصريف الرغبات المكبوتة حتى يزول المؤثر ويظل النوم متصلا . ونحن لا نستطيع أن نعرف بعد كيف يحدث هذا التصريف من الوجهة الديناميكية ، ولـكننا قد لاحظنا بلا شك أن الأحلام ليست مقلقة للنوم (وهى التهمة التى تلصق بها دائماً) وإنما هى حارسة عليه تخلصه من عوامل القلق والإزعاج . وقد يميل البعض إلى الظن بأننا لو لم نحلم لنمنا نوماً أحسن ولـكنه بذلك يكون مخطئاً لأن الحقيقة أن الفضل فى القـدر الذى ننعاه يرجع إلى الحلم وأننا لولاه لما نمنا على الأطلاق . وإذا كان الحلم لا يجد بدا من إزعاجنا قليلا فمثله فى ذلك كمثل الشرطى الذى لا يستطيع أن يتجنب إحداث جلبـة أثناء طرده من قد يعكر علينا هدوءنا أو يوقظنا من النوم .

٦ — من الصفات الرئيسية للأحلام أنها تنشأ عن رغبـة وأن محتوى الحلم يمثل هذه الرغبة . هذه واحدة والثانية أن الحلم لا يعبر عن فـكرة وحسب ، وإنمـا يمثل الرغبة كأنها تحققت . فمثلا فى الحلم الذى رأته الطفلة كانت الرغبة : « إنى أود أن أظل على ظهر المركب » أما محتوى الحلم فـكان : « لقـد رأيت نفسى على ظهر مركب يمخر عباب الماء » ومن هـذا ترون أنه حتى فى أحلام الطفولة هذه يوجد فرق بين المحتوى الظاهر والباطن للحلم . وأن هناك تحريفاً بسيطا إذ تحولت الفكرة فى المحتوى الباطن إلى تجربة حسية فى المحتوى الظاهر . وعلى هذا يجب علينا عند التفسير أن نعمل أولا على إعادة كل شىء إلى ما كان عليه .

٧ — تعتبر الأحلام توفيقاً بين قوتين : إحداهما تعمل على استغراقنا فى النوم والثانية تعمل على إيقاظنا منه لإشباع الرغبة المـكبوتة . فتكون النتيجة أننا ننام وفى نفس الوقت نشبع هذه الرغبة عن طريق الحلم .

٨ — جرى الناس على أن يطلقوا كلمة « أحلام اليقظة » على الخيالات التى يسبح فيها الإنسان وهو يقظان ليحقق بها آماله فى الطموح أو رغباته الجنسية . ولـكن أحلام اليقظة هذه تظل دائماً أفـكاراً وخيالات فقط ولا تتحول أبداً إلى تجارب حسية كما هو الحال فى الأحلام أى أنها تحتفظ بإحدى الصفات الرئيسية للأحـلام التى ذكرناها فى البند السادس ولا تحتفظ بالصفة الأخرى .

وهناك أيضاً أقوال مأثورة فى اللغة تشير إلى أن الحلم عبارة عن إشباع لرغبة . فـكلنا يعلم المثل القائل : « يحلم الخنزير بثمرة البلوط والأوزة بالذرة » . أو « بماذا يحلم الفروج ؟ بالحب »[1] . وهناك أيضاً جمل كثيرة تستخدم أثناء الحديث تشير إلى نفس المعنى كقولنا « جميل كالحلم » أو « ما كنت لأحلم بمثل هذا أبداً » .

(١) ونحن نقول فى أمثلتنا العامية : « الجعان يحلم بسوق العيش » المترجم

والآن تأملوا أى محصول غزير جمعناه فى غير صعوبة تذكر أثناء دراستنا لأحلام الطفولة ! فقد رأينا أن وظيفة الحلم هى المحافظة على النوم ، وأنه ينشأ عن قوتين متعارضتين تظل إحداهما ، وهى الرغبة فى النوم ، ثابتة ؛ بينما تعمل الأخرى على إشباع رغبة ملحة ، كما ثبت أيضاً أن الأحلام عبارة عن عمليات عقلية غنية بالمعانى ، وأن لها صفتين رئيسيتين هما إشباع الرغبات وتحويل الأفكار إلى تجارب حسية ؛ وهذا كله فى الوقت الذى كدنا أن ننسى فيه أننا ندرس التحليل النفسانى .

نرى من هذا أن الأحلام لو كانت كلها من نوع أحلام الطفولة لانحلت المشكلة ووصلنا إلى غايتنا فى غير ما حاجة إلى استجواب الحالم أو الرجوع إلى عقله الباطن أو استخدام طريقة الترابط المطلق . وعلى هذا فالمسألة التى علينا أن نبت فيها الآن هى معرفة ما إذا كانت الصفات التى تنطبق على أحلام الطفولة تنطبق كذلك على بقية الأحلام وبالأخص تلك الأحلام التى تبدو غير واضحة المعنى والتى لانستطيع أن نرى فى محتواها الظاهر أية إشارة أو تلميح إلى رغبة ظلت بغير إشباع من اليوم السابق . هذه الأحلام فى رأيى قد تعرضت إلى درجة عالية من التحريف وعلى هذا أرى أن لا نتسرع بالحكم عليها ، فأغلب الظن أننا سنحتاج فى التغلب على هذا التحريف إلى معونة التحليل النفسانى الذى استطعنا أن نستغنى عنه أثناء دراستنا لأحلام الطفولة .

ومع هذا فهناك على الأقل نوع آخر من الأحلام خال من التحريف كأحلام الطفولة ويعبر مثلها عن إشباع رغبته . وهذا النوع ينشأ عن الحاجات الطبيعية الملحة كالجوع والعطش وإشباع الرغبة الجنسية . فتحت يدى مثلا حلم لطفلة لها من العمر سنة وسبعة شهور يحتوى على قائمة بأصناف المأكولات وفى أعلاها اسم الطفلة . وقد جاء الحلم كرد فعل ليوم اضطرت فيه الطفلة إلى الصيام عن الطعام نظراً لسوء الهضم الذى ألم بمعدتها نتيجة لكثرة الأكل من نوع من الفاكهة ظهر مرتين فى الحلم . وقد أثبتت المشاهدات أن السجين الذى يترك بغير طعام ، أو المسافر الذى يعانى الجوع والحرمان يحلم دائماً بإشباع رغباته . وقد جاء فى كتاب لأوتو نوردنسكولد Otto Notdenskjold عن العصبة التى أمضى معها فصل الشتاء ما يلى :

« كانت أحلامنا فى هذا الوقت تشير بوضوح إلى الاتجاه الذى كانت تتخذه أفكارنا ، فلم يسبق لنا قبل ذلك أن رأينا أحلاماً بهذه الكثرة والوضوح ، حتى إن الرفاق الذين كانوا لا يحلمون إلا نادراً أصبحت لديهم قصص طويلة يقصونها علينا فى الصباح عند ما كنا نتبادل رواية ما قمنا به من تجارب فى هذه الدنيا الواسعة من الأطياف . وقد كانت الأحلام كلها عن هذا العالم الخارجى الذى أصبح بعيداً عنا ، ولكنها كانت غالباً ما تحوى تلميحات إلى الحالة التى كنا عليها ؛ فالأكل والشرب والسفر كانت فى أغلب الأحيان المحور الذى تدور حوله أحلامنا ... فكان بعضنا يحلم بالموائد الحافلة ، والبعض الآخر يحلم بالسفن رائحة وغادية وهكذا . »

وإذا كان أحدكم قد أكل يوماً أكلة أظمأته أثناء الليل فما لا شك فيه أنه سيحلم بشرب الماء . ولكن هذا الحلم بالطبع لن يخفف عنه حدة الظمأ ، وما يحدث فى هذه الحالة هو أنه يصحو من النوم ظمآن ويضطر إلى أن يشرب ماء حقيقياً . والخدمة التى يؤديها الحلم فى هذه الحالة ليست بذات قيمة من الوجهة العملية ، ولكنها مع ذلك ترينا أن الغرض من الحلم كان حماية النوم من المؤثرات التى تدفعنا إلى اليقظة والعمل ، وقد تستطيع هذه الأحلام أن تؤدى الغرض منها إذا كانت الرغبة على درجة أقل من الحدة

وليس معنى هذا أن أحلام « إشباع الرغبة » التى هى من نوع أحلام الطفولة لا تنشأ عند البالغين إلا كرد فعل للحاجات الطبيعية الملحة التى ذكرتها سابقاً ، وإنما هناك أنواع أخرى كذلك من الأحلام ، قصيرة واضحة تنشأ عن حالة عقلية خاصة تكون مستولية على تفكير الشخص . فمثلا هناك « أحلام الملل » ، وهى تنشأ عند ما يكون الشخص آخذاً فى الاستعداد للقيام بعمل هام كرحلة طويلة ، أو مشاهدة مسرحية ذات موضوع يستهويه ، أو زيارة صديق ، أو سماع محاضرة شيقة ... الخ . فمثل هذا الشخص ما تكاد عينه تغفو حتى تلم به الأحلام فتحقق له مقدماً ما كان يستعد لتحقيقه ، فإذا به يرى نفسه على ظهر الباخرة ، أو فى قاعة التمثيل ، أو يتحدث إلى صديقه الذى كان يأمل فى زيارته وهكذا.

وهناك أيضاً أحلام من نوع آخر يطلق عليها « أحلام الراحة » ، وهى تنشأ عند ما يكون الشخص مستغرقاً فى النوم